بعد 60 عاماً من الكر والفر.. القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتلمس خطاها.

في 7 من شهر رمضان عام 632 هجرية الموافق 26 مايو 1235 ميلادية أصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية حيث أعلن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي هذه المدينة عاصمة الدولة الفاطمية بعد أن كانت في مدينة المهدية

بعد أن استقرّت أمور الفاطميين في إفريقية، أرادوا توسيع دولتهم لتضمّ المغرب الأقصى (مُرّاكش)، وقد تمكنوا من بسط سيطرتهم على معظم أنحائه بعد نزاع مع حكّامه الأدارسة، إذ تمكنَ القائد الفاطمي «موسى بن أبي العافية» من هزيمتهم سنة 312هـ. وقد تمرّد بن أبي عافية على الفاطميّين بعد فتح المغرب، وحوّل ولاءه إلى عبدُ الرحمٰن الناصر لدين الله أمير الأندلس الأمويّ، لكن عُبيد الله المهدي أرسل ابنه «أبا القاسم» سنة 315هـ فتمكّن هذا الأخير من استعادة سيطرة الفاطميّين على المغرب. اضطرَ الفاطميون لاحقاً لخوض حروب كثيرة مع الخوارج بالمغرب، فقد ثار عليهم خارجيٌ يدعى «أبا زيد» انتشرت ثورته انتشارًا كبيرًا، وتوفيّ خلال أيام هذه الثورة عبيد الله، فورث عنه حكم دولة الفاطميين ابنه أبو القاسم مُحمّد القائم بأمر الله، واستمرّ بمحاربة الخوارج، لكنه توفي سنة 334هـ دون تمكّنه من هزيمتهم. فخلفه ابنه اَلمنصور بنصر الله الذي تمكّن أخيرًا من القضاء على ثورة أبي يزيد في سنة 336هـ، وأسّس مدينة «المنصوريّة» بإفريقية ليجعلها عاصمة الفاطميين. توفي الخليفة المنصور سنة 341هـ، فخلفه ابنه المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميّين وأحد أهم حُكّام الدولة الفاطمية.

الدولة الاخشيدية

كانت تحكم مصر في زمن ظهور الفاطميين الدولة الإخشيدية، ومنذ بداياتهم حاولوا عدّة مرة الاستيلاء على مصر، فأرسلوا إليها حملات عسكريّة في سنوات 302 و307 و321 و322 و332هـ، وقد تمكّنت بعض هذه الحملات من السيطرة على أجزاء كبيرة من البلاد، بل إنّ بعضها نجحت بالاستيلاء على الإسكندرية، إلا أنّ الفاطميين كانوا يضطرُّون للانسحاب في كلّ مرّة أمام جيوش محمد بنَ طغج الإخشيدي. رغم ذلك، كان هناك دعاةٌ منتشرون في مصر طوال العهد الإخشيديّ، يدعون الناس لاتباع الدولة الفاطميّة. إلا أنّ الدولة الإخشيدية قد شهدت مع موت أحد آخر حكامها أبي المسك كافور الإخشيديّ (سنة 357هـ) انحدارًا كبيرًا وانهيارًا اقتصاديًا شديدًا، فانتشر الغلاء والمجاعات والأمراض، وكثر الموت بين الناس. أدّت هذه الأحوال المتردية إلا سخط أهل مصر على الإخشيديين، ووصلت أنباء هذه الحال إلى معز الدين الفاطميّ، فبادرَ على الفور باستغلال الفرصة بإرسال جيش فاطمي على رأسه جوهر الصّقلي لضمّ مصر إلى دولته. لم يبدي المصرّيُون أيّ مقاومة تذكر للفتح الفاطمي نتيجة هذه الأوضاع، وقد استبشروا بقدوم حكام جدد لهم عوضًا عن الإخشيديين، خصوصًا بعد خطبة قالها جوهر الصقلي باسم معزّ الدين الفاطمي عندما دخل مصر، فقد قدّم في هذه الخطبة وعوداً عديدة بينها تجديد سكّة النقود لتجنُّب الغش فيها، وتخفيف الضرائب الشديدة التي فرضها الإخشيديون، وحماية المصريّين من خطر دولة القرامطة بالمشرق، ومنح أهل السنّة الحرية بممارسة مذهبهم على طريقتهم. جهّز الفاطميون جيشًا من 100،000 جندي لأخذ مصر بقيادة جوهر الصقلي، وقد كان هذا الجيش متعددًا عرقيًا بدرجة كبيرة، إذ اشتمل على رجالٌ من البربر والصقالبة والروّم والسودان، وصرف معزُّ الدين الفاطمي عليه ملايين الدنانير. وصل جوهر الصقلي أول دخوله مصر إلى بلدة تسمّى «منية الصيادين» تقعُ قربَ الإسكندرية، فاستقبله وفدٌ من أهلها على رأسه وزيرٌ إخشيديٌ بارز يُدعَى «جعفر بن الفرات»، فسلّموا له وقبلوا بأخذه بلادهم دون مقاومة.

فتوى لقتال الفاطميين

إلّا أنّ الحاكم الإخشيدي «أبا الفوارس بن الإخشيد» رفض الاستسلام، وبدأ بجمع جيش لالتقاء الفاطميين، فسارعَ جوهَر بالذهاب إلى قاض معروف بالإسكندرية يدعى «أبا الطاهر محمد بن الأحمد» واستشاره بما يفعله مع الإخشيديين متذرّعاً بالجهاد قائلًا: «مَا تَقُوْلُ فِيْمَن أَرَادَ العُبُوْرَ إلى مِصْرَ لِيَمْضِيَ إلى الجِهَاد لقتَال الرُّوْم، فَمُنِعَ، أَلَيْسَ لَهُ قتَالهُمْ؟»، فوافقَ القَاضي، وأصدَرَ فَتوى تحلُّ له قتال الإخشيديين. قاد ابن الإخشيد جيشًا إلى وراء النيل في جهة قريبة من الجيزة، والتقى هنَاك بجَيش جوهر، إلا أنّ الفاطميين سرعان ما انتصروا انتصارًا كبيرًا، ودخلوا الفسطاط بسهولة، ثم فتحوا ما تبقّى من مصر دون مقاومة تذكر، وقد فرح الناس بهزيمةً ابن الإخشيد بعد ما عانوه بسببه، ونهبوا قصور الإخشيديين بعد أن فرّ هؤلاء إلى بلاد الشام.

«القاهرة المعزّيّة»

أمر جوهر الصقليُ فور ضمّ مصر ببناء مدينة جديدة ليستَقرّ فيها جنودهُ، وذلكَ تجنُّباً لأيّ مشاكل أو توترات قد تنجم عن اختلاط العساكر بأهل البلاد. وقد قسّم المدينة الجديدة إلى أقسام ليفصل كل مجموعة عرقيّة عَن الأخرى، فكان هناك حيٌ خاص بالبربر، وواحد للصقالبة، وآخر للروم، وهلُمّ جرًا. وبعد أن استقرّت الأمور في مصر، قرّر معز الدين نقل عاصمة دولته من المهديّة بإفريقية إلى هذه المدينة الجديدة، وهكذا تأسّست مدينة «القاهرة المعزّيّة» في 17 شعبان سنة 358 هـ ودخل معز الدّين الفاطمي مصر في سنة 362هـ المُوافقة لسنة 972م، لتصبح مقرّ حكم الفاطميين حتى نهاية دولتهم. قبل أن يرحل المعزّ لدين الله عن إفريقية لينتقل إلى عاصمته الجديدة في مصر، عيّن بلكين بن زيري واليًا عليها مكانه، وكان ذلك في سنة 362هـ المُوافقة لسنة 972م. وقد استولى أبناؤه من بني زيري على مجمَل شمال أفريقيا فيما بعد، وانقسموا بعد بعض الخلافات الداخلية إلى قسمَين اثنين: «بنو زيري» في إفريقية، و«بنو حماد» في المغرب الأوسط (الجزائر حاليًا). لكن الزيريّين استقلوا لاحقًا عن الدولة الفاطميّة، وحوّلوا ولاءهم عوضًا عنها إلى الخلافة العبّاسيّة في المشرق.

بعد أن استقرّت الأمور في مصر للفاطميّين، انتقل صراعهم إلى دولة القرامطة في الشّرق. فقد غزا القرامطة بدعم بويهيّ مصر عدّة مرات، وكادوا يصلوُن إلى القاهرة، لكنّ جوهر الصقلي نجح بصدّ هجماتهم. وخلال السنوات الآتية أخذ الفاطميُون بالتوسّع تدريجيًا على حساب القرامطة وباقي الدول الأخرى في المنطقة، فتمكّنوا من انتزاع بلاد الشام في سنة 363هـ المُوافقة لسنة 973م من الحُسين بن أحمد القرمطي حاكم القرامطة، وضمُّوها حتى مدينة حلب شمالًا بعد القضاء على دولة الحمدانيّين، واستولوا على الحجاز بعد هزيمة أشرافها، فباتت رقعة الدولة الفاطميّة ممتدّة من المغرب إلى مشارف العراق.

السيطرة على مصر

بلغت الدولة الفاطميّة ذُروة عزّها وكمالها في عهد الخليفة الخَامس، أبو منصور نزار العزيز بالله، وإليه يُعزى تمكين السيطرة الفاطميّة على مصر والشّام، ونشر السلام والرّخاء في مُختلف أرجاء الدولة، التي بلغت في عهده أقصى اتساعها. كان العزيز مسؤولًا عن إرساء الدولة الفاطميّة وتشكيل هويّتها، إذ يمكن تشبيه دوره بدور أبي جعفر المنصور في الدولة العبّاسيّة، وقد بدأ عهده في سنة 365 هـ الموافقة لسنة 975م. من بين 270 سنة تَقريبًا عاشتها الدولة الفاطميّة من صعودها إلى سقوطها، يُعتبر أنّ عصر قوتها الحقيقيّة استمرّ لنحو 115 سنةً منها، بعدها قرابة 70 سنةً عاشتها في ازدهار حضاري لكن بضعف سياسيٍ، قبل أن تبدأ بالانحطاطً والسُّقوط.

شهد عهد العزيز إنجازات إدارية وتنظيميّة متنوعة. فقدّ رُتّبت الدواوين بدقّة لتسهيل الإَجراءات الإدارية. وأحاط العزيز نفسه بمظاهر الترف وأغدق الأموال على قصوره وممتلكاته. واستحدث منصب الوزراء، فعمل على اختيار رجالٍ كفؤين لشغل هذا المنصب، إلا أنّه اختارهم من الطائفتين اليهوديّة والنصرانيّة، لكي لا يكون لهم نفوذٌ كبير يسمح لهم بالانقلاب عليه (وقد كان أوّلهم وأحد أشهرهم يعقوب بن كلس). وكذلك عدّل تركيبة الجيش العرقية، فقد كان الجيش الفاطمي بأكمله تقريباً مؤلّفا من البربر، فخشي أن يتكاتفوا معًا عليه إذا ما اضطّربت الأمور، لذا شكّل جيشًا جديدًا خاصًا به من الجنود التُّرك والأكراد والسُّودان، وكلّف هذا الجيش بإدارة معظم ولايات دولته عوضًا عن الجيش البربري. وقد وقعت نتيجةً لذلك فتنةٌ في الجيش بين المغاربة والأعراق الأخرى. وقد أراد العزيز أن يكون مذهب الدولة الرسميّ هو المذهب الإسماعيليّ، فعمل على نشره في دولته بكلّ ما استطاع، وسمح بسبّ صحابة محمّد. شهد عصره بَعض الإنجازات العسكريّة أيضًا، فقد قاد جوهر الصقلي عدّة حملات على الشام والعراق، تمكّن خلالها من ضمّ مدن شيزر وحمص وحماة، بل وقد نجح ببلوغ الموصل وإجبار جوامعها على الدعاء للخليفة الفاطمي لفترة قصيرة. توفّي العزيز نتيجة مَرض في القولون سنة 386هـ الموافقة لسنة 996م.

خلف العزيز ابنه الحاكم بأمر الله، فاتّبع أباه في بداية عهده، ونجح بتثبيت أركان الدولة وتهيئة أمورها، وحسّن علاقته مع أهل السُّنّة، فجالس علماءهم وبنا لهم دور علم. وقد كان متديّنًا كثيرًا الحدّ المُغالاة، حتى أنه حَظر زراعة العنب خشية استعماله بصناعة الخمر، ومنع النسوة من المشي في الشوارع، واضطّهد المسيحيّين واليهود. إلا أنّ شخصيته تقلّبت فيما بعد، فغيّر منهجه مع أهل السُّنّة، ولم يعد شديد التديُّن، بل إنّه أصيب بالغرور حتى شبّه نفسه بالإله وسمح لأتباعه بوصفه بأوصاف إلهية، ممّا أساء لسمعته وَسمعة الإسماعيليّة في مصر والعالم الإسلامي، وأثار سخط النّاس عليه، فثاروا عليه وكرهوه، وانتشرت الفوضى بمصر، فوقعت اشتباكاتٌ بين السكان وجيش الحاكم بأمر الله، ودبّت الفوضى. وأخيراً قرّر الحاكم الخروج من القاهرة، وكان ذلك في شوّال سنة 411هـ الموافقة لسنة 1021م، واختفى اختفاءً غَير مفسّر بعد خروجه منها بفترة قصيرة. وهناك العديد من الرّوايات والنظريات حول سبب اختفائه، لكن الأرجح أنّه اغتيل. منذ نهاية عهد الحاكم، أخذت قوّة الفاطميين السياسيّة بالانحدار شيئا فشيئًا، وكان معظم الحكام الذين تبعوه صغارًا لم يبلغوا سنّ الرُّشد بعد، لذا فقد افتقروا إلى السُّلطة، وأصبحت الدولة فعليًا في أيدي الوزراء الفاطميّين أو أقارب حكامها صغار السّن.

ست المُلك

خلف الحاكم بقيادة الدولة الفاطميّة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، إلا أنّه كان حدثًا لم يبلغ سنّ الرشد، فأصبحت عمّة له تُدعَى «ست الملك» الحاكمة الفعليّة للدولة، وتمكّنت من إدارة شؤون الدولة بصورة جيّدة، إلا أنّها توفّيت فيّ منتصف عصره سنة 415هـ. وقد سار عهده بهدوء في البداية، إلى أن بدأت الثورّات ضدّه، فخرج صالح بن مرداس في الشام وانتزع منه حلب، ثمّ جاء حاكم الرملة «حسان بن المفرج البدوي» فانتزع معظم أنحاء الشام. وقد دام حكم الظاهر لخمسة عشرة سنة، ثم توفّي صغيرًا.

تَولّى ابنه معد المستنصر بالله الخلافة وهو لا يزال في السّابعة من العمر، وقد دام حكمه نحو 60 سنة، ليكون أطول الخلفاء الفاطميّين عهداً على الإطلاق. في بدايَة عهده، كانت أمُّه وبعض وزرائه هم الحكام الفعليّين للدولة. كان النصف الأول من خلافة المستنصر مزدهرًا ازدهارًا عظيمًا، فوصلت فيه الدولة الفاطميّة أوج قوّتها واتّساعها، وامتدّت حدودها من المغرب إلى العراق، بل وقد تمكّن سنة 450هـ الموافقة لسنة 1058م رجلٌ من حلفاء الفاطميّين يدعى «أبا الحارث البساسيري» من الاستيلاء على بغداد والقبض على الخليفة العباسي، فأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر، وكانت تلك أوّل وآخر مرّة في التاريخ تقام بها الخطبة ببغداد للفاطميين إلا أنّ الأمور بدأت بالاضطّراب فيما بعد، فأصيبت مصر بمجاعة هائلة استمرّت سبع سنواتً من سنة 457 إلى 464هـ (الموافقتين لسنتي 1065 إلى 1071م)، وهي تُعرَف باسم «الشدّة العظمى» و«الشدّة المستنصريّة». وبدأت العديد من أقاليم الدولة بالتمرُّد على الفاطميّين، فانقطعت الخطبة عن المستنصر في مكة والمدينة سنة 462 هـ الموافقة لسنة 1070م ليُخطَب عوضاً عنه للخليفة العباسي مجدّدًا، وكانت الحال نفسها في المغرب، فقطع أمير بني زيري المعز بن باديس علاقته بالفاطميّين وحوّل ولاءه إلى الخلافة العبّاسيّة، أمّا بغداد التي كانت قد انضمّت للفاطميين حديثًا، فقد قتل حاكمها البساسيري على يد سُلطان السلاجقة طغرل بك القادم من الشرق، لتنتهي سلطة الفاطميّين عليها حتى نهايتهم. ولم يتوقّف السلاجقة عند هذا الحدّ، بل تابعوا التقدُّم غربًا ليصطدموا بالدّولة الفاطمية مرة أخرى في بلاد الشام، ونجح سلطانهم جلال الدولة ملك شاه بانتزاع معظم بلاد الشام من الفاطميين – بما فيها القدس وفلسطين – سنة 463 هـ (1070م). وتسبّب عجز المستنصر عن السيطرة على هذه الأحداث بانهيار هيبته تمامًا في الدولة. وعلاوةً على هذه الخسارات الكبيرة، فقد وقعت الفتنة سنة 466 هـ بالجيش بين المغاربة أولاً، والتُرك ثانيًا، والسُودان ثالثًا، ووقعت معاركة كبيرةٌ بينهم وكثر القتل.

الترك أصبحوا الحكام الفعليين

بدأت الدّولة تخرج تمامًا عن السّيطرة، وأخذ التُرك يصبحون الحكّام الفعليّين للدولة عوضًا عن الخليفة نفسه، فقرّر المستنصر الاستعانة بحاكم عكا الأرمنيّ بدر الدين الجمالي، وهو أشبه بدكتاتور يُعرَف بشدّته وقدراته الإداريّة والتنظيميّة العالية. استدعى المستنصر بدر الجمالي ليتسلّم منصب وزراة الدولة الفاطمية وقيادة جيشها، فوافق هذا الأخير، وجاء إلى مصر، وكان وزيرًا قويًا ومهيبًا، فأعاد للدّولة قوّتها واستقرارها وثبّت أركانها من جديد. ووصلت الدولة في عهده أوج قوّتها وازدهارها، فشيّدت القصور وازدهر العلم والحَضارة وعادت الأموال الكثيرة إلى مصر، فارتفع الخراج من مليوني دينار في سنوات المجاعة إلى أكثرَ من ثلاثة ملايين. من جهة أخرى، فشل بدر الجمالي فيّ بعض النواحي العسكريّة، إذ لم يستطع حماية بلاد الشام من تقدُّم السلاجقة التُرك شرقًا والصليبيّين الأوروبيّين شمالاً، فخسر الفاطميُّون كُل الشّام ما عدا مدينة عسقلان لم يكن مجيء بدر الجماليّ جيّدًا تمامًا للمستنصر، فقد بدأ ينازعه على السُّلطة، وتنامى نفوذه بدرجة كبيرة جدًا، حتى أصبح أقرب إلى الحاكم الفعلي للدولة الفاطميّة، واستمرّت الحال هكذا حتى وفاة المستنصر سنة 487 هـ الموافقة لسنة 1094م، فبدأ بذلك «العصر الفاطمي الثاني»، الذي كان الوزراء فيه هم الحكّام الفعليّين للدولة

مسجد الحاكم بأمر الله، أحد معالم العصر الذهبي للدولة الفاطميّة بالقاهرة.

مدينة الفسطاط القديمة القريبة من القاهرة، والتي دخلها الفاطميُون دون مقاومة بعد انهيار الدولة الإخشيدية